الدرس الرابع: تجربة التحول الديمقراطي في الدول الغربية: التجربة الاسبانية

الهدف: تناول ابرز التجارب الحاصلة في الدول الغربية واستخلاص الدروس المستفادة منها بما يتيح لنا فيما بعد اجراء المقارنة العلمية الصحيحة وتقديم تفسير علمي مؤسس للتجارب الدول الغربية

توطئة: مرت العديد من مجتمعات أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا في الثلث الأخير من القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين بتحولات سياسية متتابعة أبعدتهم عن أنماط الحكم الديكتاتورية والسلطوية، وأنتجت ترتيبات جديدة لإدارة العلاقة بين الدولة والمواطنين اتسمت بالانفتاح السياسي والتنافسية.

وفي خضم الكثير من تجارب التحول نحو نظم أكثر ديمقراطية تبرز التجربة الاسبانية بعد فرانكو وكأنها تحتل حيزا خاصا في تجارب التحول في العالم، ومن أنجح تجارب التحول الديمقراطي الآمن إذا ما قورنت بتجارب تحول أخرى جرت في أوربا الشرقية وأمريكا اللاتينية.

أولا. خصوصية التجربة الاسبانية في التحول الديمقراطي:

يُجمع الكثير من الدارسين على أهمية وخصوصية التجربة الاسبانية ضمن تجارب التحول نحو الديمقراطية، فقد شهدت اسبانيا عملية تحول ديمقراطي ناجحة ومؤثرة بدأت في عام 1975 في إطار الموجة الثالثة من الديمقراطية التي اجتاحت العالم كما أرخ لها صامويل هنتجتون، ويمكن عدها أنموذجاً أكثر إلهاماً في مراحل الانتقال إلى الديمقراطية.

ورغم ما واجه مسيرة الديمقراطية في إسبانيا ورغم تصاعد الكثير من الحملات تندد بالفساد الذي ينخر الجسم الديمقراطي الإسباني، استمرت الديمقراطية الإسبانية وأصبحت منارة أمل للديمقراطيات الشابة الأخرى ومثالا للديمقراطيات الأكثر نضجا لاعتقاد الكثير من الدارسين بخصوصيتها.

وتكمن خصوصية التجربة الاسبانية في كونها ليست تجربة انقلابية أو ثورية أو فوضوية، وأن عملية الإصلاح كانت من الداخل، أي من داخل النظام الذي قاد بنفسه عملية إصلاح سياسي طويلة انتهت إلى تكريس نظام ديمقراطي قوي.

1-إسبانيا قبل التحول الديمقراطي:

كان تاريخ إسبانيا منذ أواخر القرن التاسع عشر عبارة عن ألبوم لِكُل شكل تقريبا من أشكال الحكم الاستبدادي الذي يمكن تخيله، بما في ذلك النظام الملكي المطلق من عام 1886 إلى عام

1931، وهي فترة تضمنت أيضا نظاما فاشيا بين عامي 1923–1930، والثيوقراطية خلال فترة فرانكو المبكرة 1939–1959، والديكتاتورية التكنوقراطية في أواخر فترة فرانكو 1959–1975.

وقد عرفت إسبانيا منذ مطلع القرن العشرين تاريخا مليئا بالأحداث، فقد شهدت حراكاً سياسياً تمثل في الصراع الحاد بين قوى سياسية ذات توجهات إيديولوجية متطرفة ومعتدلة، يسارية وليبرالية ودينية محافظة وقومية، وقد عرفت منذ تولي الجنرال ريفيرا في 1923 عهدا جديدا مع الدكتاتورية. كما اتسم تاريخها السياسي بصراعات دامية وانقلابات عسكرية أهمها الانقلاب العسكري الذي قاده فرانكوا ضد حكم الجبهة الشعبية التي كانت تحكم اسبانيا.

واستمرت الصراعات مع اعلان الجنرال فرانكوا انقلابه العسكري ووثوبه على السلطة في عام 1936، وانتهت بحرب أهلية دامت ثلاث سنوات انتهت في 1939، لكن لم تُنه معها الدكتاتورية وأساليب الدولة البوليسية التي استمرت طيلة فترة حكمه حتى وفاته في العشرين من تشرين الثاني 1975.

- **مرحلة حكم الجنرال فرانكوا... الدكتاتورية في أوج مراحلها:**

اتسم حكم الجنرال فرانكو بعدة صفات أَهمها: عدم وجود دستور خاصة بعد أن ألغى دستور عام 1931 ، وتركز السلطة بيده، فهو يُشَّرع القوانين، وذلك لحالة الطوارئ التي أعلنها في البالد حتى عام 1948، كما إن مؤسسات الدولة عملت على إتباع ودعم قرارات رئيس الدولة دون أي قاعدة ديمقراطية.

وأكثر من ذلك اتجه نحو دولنة المجتمع من خلال:

– حرمان المواطنين من حق التصويت والانتخاب فكانت المناصب السياسية تشغل بالتعيين؛

– عدم السماح بتشكيل الأحزاب السياسية وإتهامها بزرع الانشقاق والفتنة بين مكونات المجتمع،

– إلغاء النقابات كافة ما عدى التنظيم النقابي الرسمي للعمال،

– مارس القمع المستمر والمخطط للأصوات المعارضة للنظام كافة، والتحكم بوسائل الإعلام والصحافة والطباعة.

2- الصحوة الديمقراطية في إسبانيا:

يُجمع الكثير من الدارسين لعمليات التحول الديمقراطي على حتمية توفر درجة من النمو الاقتصادي ومن تماسك الطبقة الوسطى كشرط ضروري للتحول نحو الديمقراطية ولاستقرار الحكم الديمقراطي.

وتكمن المفارقة في الحالة الإسبانية أن اتجاه نظام فرانكوا نحو انفتاح الاقتصاد على السياحة الاستثمار الخارجي وطلب المساعدة من صندوق النقد الدولي، قد مهد الطريق عن غير قصد لظهور الديمقراطية، وهي النتيجة التي كان فرانكو يخشى منها أكثر من غيرها.

وقد دفعت هذه الاجراءات بأجندات التحديث الاجتماعي والاقتصادي، ومهدت لجعل إسبانيا أحد أسرع الاقتصادات نموا في العالم بين عامي 1963-1971، وزاد دخل الفرد بأكثر من الضعف. وبحلول عام 1975، وهي سنة وفاة فرانكو، كانت إسبانيا قد أصبحت دولة مزدهرة من الطبقة الوسطى، وكانت تتمتع بمجتمع مدني قابل للحياة ودولة رعاية متقدمة نسبيا.

3- إعادة اختراع الديمقراطية من رحم السلطوية:

بعد وفاة فرانكو، صمَّم **أدولفو سواريز** وهو أول رئيس وزراء تحظى به إسبانيا في العصر الديمقراطي، تحوُّلا ديمقراطيا يعتبره علماء السياسة بمنزلة تحفة فنية سياسية، ورسم خارطة طريق نقلت اسبانيا الى مجتمع افضل لم تقتصر على اصلاح الجانب السياسي فحسب بل عرفت معها اسبانيا تحولات اقتصادية وسياسية وفكرية وثقافية في اطار التغيير الشامل الذي حصل فيها.

وقد تميزت التجربة الاسبانية في إطار التحول الديمقراطي في أن كانت عملية الاصلاح نابعة من الداخل، فالنظام السياسي هو الذي قاد الاصلاحات بنفسه على مختلف المستويات:

فعلى المستوى السياسي: تم التوجه نحو اعتماد مشروع إصلاحي حقيقي للانتقال نحو الديمقراطية قاده رجال من النظام نفسه، تزعمه عدد من الشخصيات السياسية الشابة ذات التوجهات الليبرالية الداعية لانفتاح سياسي حقيقي، ومن أبرزهم أدولفو سواريث.

وقد ركزت خارطة الطريق التي اعتمدها رئيس الوزراء الإسباني على إعادة النظام الاستبدادي اختراع نفسه سلميا بوصفه ديمقراطية من خلال توظيف مؤسسات الدولة الاستبدادية، استجابة لضغوط الجمهور وبدعم من الملك، وقد أُنجزت كل هذه الإصلاحات في أقل من عامين، وشملت:

- **حلّ برلمان** فرانكو نفسه بالتصويت في عام 1976؛
- **إضفاء الشرعية** على الأحزاب السياسية والنقابات العمالية؛
- **إجراء انتخابات ديمقراطية،**
- **صياغة أحد أكثر الدساتير ليبرالية** في أوروبا الغربية وقد وافق عليه الإسبان باستفتاء وطني.

أما على **المستوى الاقتصادي** فقد استمر التحول الى اقتصاد ليبرالي يؤمن بالانفتاح وجلب الاستثمارات الى البلاد وتحقيق الازدهار الكامل له .

وقد رافق الاصلاح السياسي والاقتصادي العمل على احداث ثورة فكرية وثقافية في المجتمع لا تقل شأنا عن التحولات الاقتصادية والسياسية نقلت بموجبها اسبانيا الى مجتمع أفضل،

وقد ساهم الكثير من المثقفين والأدباء والمفكرين في تحقيق الازدهار الثقافي للبلاد، بإحداث طفرة نتيجة لاختفاء العوائق الثقافية سواء في العادات الاجتماعية وازدهار الفن واقامة المعارض الفنية، ودور السينما التي اهتمت بتداول حلول لمشاكل المجتمع الاسباني، واحياء التراث الاسباني و قيمه العريقة، ودور المسرح الذي كان سببا في توعية المجتمع الاسباني وتنويره و وانفتاحه الفكري والثقافي، بالإضافة الى الصالونات الابداعية التي كان من اهمها صالون الاديب الكبير جورجيو موراليس.

4- عوامل نجاح التحول الديمقراطي في إسبانيا: رغم خصوصية التجربة الاسبانية في التحول نحو الديمقراطية باعتبار أن عملية الاصلاح كانت من الداخل وبرعاية النظام القديم ورجالاته.

وأكثر من ذلك تعرضت تعرضت الديمقراطية الشابة في إسبانيا لاختبار قاسٍ منذ الانتقال إلى الديمقراطية؛ فقد شهدت إسبانيا محاولة انقلاب عام 1981، والعنف الإرهابي للجماعات الانفصالية، وتفجيرات القاعدة في مدريد عام 2004، إلى جانب التراجع الاقتصادي الحاد بعد الأزمة المالية العالمية لعام 2008، والصراعات الانفصالية في كاتالونيا ومنطقة الباسك.

ومع ذلك، استمرت الديمقراطية الإسبانية وأصبحت منارة أمل للديمقراطيات الشابة الأخرى ومثالا للديمقراطيات الأكثر نضجا، وأنموذجاً أكثر إلهاماً في مراحل الانتقال إلى الديمقراطية.

وتكمن أهم عوامل انتصار الديمقراطية في اسبانيا في:

1- الدور الفاعل للمجتمع المدني في إسبانيا الذي أكد رغبته في تحقيق تغيير هادئ، بعيداً عن أي شكل من أشكال التطرف، وذلك من خلال توجهه بثبات لصالح مشروع الإصلاح الديمقراطي الحقيقي؛

2- انفتاح وتبني القوى السياسية والاجتماعية الاعتدال في مواقفها ورؤاها السياسية بعيداً عن العنف والتطرف؛

2- **الدور الذي لعبته النخبة السياسية/** الشخصيات السياسية الشابة ذات التوجهات الليبرالية الداعية لانفتاح سياسي حقيقي، فرغم انطلاق عملية التغيير السياسي من تركيبة النظام الديكتاتوري نفسها، إلا أن تأثير جيل من السياسيين الشباب الذي نشأ في المراحل الأخيرة للنظام القديم، وأخذ يتقبل فكرة إحداث تغييرات وإصلاحات سياسية جذرية، أسهم بشكل كبير في إحداث نقلة نوعية اتجاه الديمقراطية.

اسئلة للتقييم الذاتي: تحدث عن التجربة الاسبانية للتحول الديمقراطي مبرزا اهم العوامل المساهمة في نجاحه والنتائج المتوصل اليها ؟